بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :-

في هذا الشهر المبارك ، شهر رمضان من سنة ١٤١٢ هجرية ، الموافق مارس من عام ١٩٩٢ ميلادية فرغت من تسطير آخر صفحات هذا الكتاب ، وأنا أشعر بأنني وإن كنت قد أديت واجبا الا أنني لم أحسن أداءه ، ولكن حسبي أنني بذلت ما استطعت من جهد بقدر ما كانت تسعفني به الذاكرة التي جر عليها تقادم العهد الكثير من الاضمحلال .

إنني أشعر بأنني مدين لأكثر من كاتب أو باحث في سبيل الحصول على هذه المعلومات ، ولكنني أدين لشخصين أو كاتبين بالكثير من الايحاء الذي دفعني دفعا لكتابة هذا الكتاب ، أول هذين الباحثين هو والدي رحمه الله محمد صالح ضرار . فقد ترك لي - رحمه الله - مسئولية مؤلفاته ، وكنت قد أقبلت على إعدادها للطبع ، وكان من جراء ذلك أن قمت بقراءة نصوصها وطباعتها على الآلة الكاتبة لإعدادها للطبع بشكل سليم - أقول كان من جراء ذلك أن تحتم علي أن اقرأ النص مرارا وتكرارا . وكنت في كل مرة أجد لذة لاتعادلها لذة وأنا أطالعها . كما كنت اعجب من قدرة هذا الباحث على جمع المعلومات منذ فجر شبابه ، والذي إن لم يكن قد فعل ذلك لضاعت ثروة إنسانية ضخمة ثرة . أعجبت بحدة تفكيره ، وسبقه لعصره ، وكأنما عناه المتنبئ بقوله :-

ذَكِيٌّ تَظَنِّيهِ طليعةُ عينِـــه   يرى قلْبه في يومه ما ترى غدا

وصول إلى المستصعبات (بعقله)   فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

وكان أن دعيت للمؤتمر العالمي للغات الكوشية في باريس في سبتمبر عام ١٩٧٥. وكان المؤتمر معنيا باللغات الكوشية التي تعتبر اللغة التبداوية إحدى لغاتها . وكان المؤتمر قد عني أيضا بكل ما يتصل بتلك اللغات من تاريخ واجتماع . وطلب مني أن يكون حديثي في هذه المجالات ، وقدمت بعض القصص الفولكلورية ، والأشعار البجاوية بكل من اللغة التبداوية والبني عامرية مع ترجمة كل ذلك باللغة الانجليزية . وقد أعجب الباحثون الذين حضروا المؤتمر بما قدمت من أعمال الوالد في هذا المجال ، فكان أن وصفوه بأنه رجل سبق أوانه لأن ما جمعه من فولكلور كانت بدايته قبل خمسين عاما من تاريخ المؤتمر . ولما كانت هذه الصفحات التي أسطرها الآن عبارة عن صفحات إشادة بالجهود المشرفة المرموقة التي قام بها من سبقني في هذا المجال ، فإنني سأكتب ما أكتب بمزيج من العقل والعاطفة إذ بذلك يمكنني أن أفصح عما يجيش بصدري ، أو على الأصح ببعض ما يجيش به .

إن هناك جهودا كبيرة بذلت في شرق السودان لتدوين ما كان من أحداث في تاريخ ضفتي البحر الأحمر لأن كل من أراد أن يكتب باللغة العربية يجد نفسه قد توجهت أنظاره نحو الجزيرة العربية التي أمدته بهذه اللغة الماهرة في صنع الأساليب ، الرائعة في قدرتها على بث المعلومات ، والجذابة في التصنيف والإبداع . وكان على رأس أولئك الذين كانوا يعيشون في شرق السودان مؤرخنا محمد صالح ضرار ، فهو من الذين أفنوا شبابهم ، و أثروا مشيبهم في البحث عن العلاقة بين شاطئي بحر القلزم ، ففي الشرق شبه الجزيرة العربية ، وفي الغرب وادي النيل حيث تربض كل من مصر والسودان .

obeikandl.com

لقد نشأ هذا الكاتب وفي يده القلم منذ نعومة أظفاره ، وقدم من البادية حيث لا يتكلم أُحد اللغة العربذية ، ونقل معه لغاته البجاوية ، وهبط جزيرة سواكن حيث أدخله خاله إدريس بك مدير الجمارك المدرسة التي أسستها الحكومة المصرية . وكان من بين أساتذة المدرسة الرجل الشجاع ، الشيخ ماضي أبو العزائم المصرى الذي كان لا يخشى الاستعمار البريطاني ولا أساليبه الرهيبة . وكان ضرار صغيرا في المدرسة واستمع وهو طفل إلى خطاب بارع في الدين والوطنية من الشيخ أبي العزائم عن وقوع عثمان دقنة أمير الأمراء وقائد فيالق المهدية في شرق السودان أسيرا في أيدي البريطانيين . أثارت كلماته المفعمة بالإيمان نفوس من كانوا يستمعون إليه ، ومن بينهم ذلك الطفل التلميذ محمد صالح ضرار ، فشغف من ساعته بأساليب اللغة العربية القوية ، وبإلقاء الشيخ ماضي الحماسي ، وبمظاهر الوطنية الحقة التي فاه بها ذلك الأستاذ . ومنذ ذلك الخطاب قرر محمد صالح ضرار أن يكتب تاريخ أمته بكل ما أوتي من قوة وفصل خطاب .

لقد استقر رأي ذلك التلميذ على أن يسجل بقلمه كل ما كان من أحداث في شرق السودان ، وحسبه أن يفعل ذاك ، دون أن يكون ذلك آخر المطاف ، بل إنه سيعمل على إبراز جهود كل مواطن مخلص في شرقي البلاد وغربيها ، شمالها وجنوبها ، وبالفعل فإنه لم ينتقل إلى الدار الآخرة إلا بعد أن كتب مئات الصفحات عن تاريخ العروبة والإسلام ، وانتقالهما من الجزيرة العربية إلى السودان ، ولو أنه اختص شرق السودان بأكثر وقته لعلمه بلغاته ، ومعرفته بهذه اللغات وفهمها . وهكذا فقد اختط لنفسه عملا كان يثق في أنه يستطيع أن يؤديه أحسن من غيره، فهو لغوي حاذق

يعرف بالإضافة إلى لغات إقليم البجة اللغة العربية واللغة الإنجليزية مع الإلمام باللغة التركية .

وقد كان بسبب تخصصه ذاك أن عرفته المصادر الغربية ، ووصف المؤرخ أندرو بول علمه عن تاريخ شرق السودان وقبائله بأنه دائرة معارف . ويسعدني أن أذكر في هذه الأسطر أن معظم مؤلفات هذا المؤرخ قد نشرت ، ولو أنه بقيت بعض الصفحات من القصص الفولكلورية التي نأمل أن ترى النور قريبا .

وكان كتاب الدكتور يوسف فضل حسن عن (العرب والسودان) باللغة الإنجليزية من أهم مصادر الوحي الذي حرك قلمي وفكري . والدكتور يوسف تلميذي الصغير الذي كان يتميز بالذكاء والألمعية مع حفنة قليلة من زملائه ، وقد انخرط في دنيا القلم ، ولم يتجه إلى العلوم . وقد وجدت في كتابه متعة قل أن تعادلها متعة ، ووجدت أنه بالإضافة إلى حرصه على ذكر كل حادثة تاريخية صغيرة أو كبيرة ، وعلى كل رأي قيل في ذلك ، رأيته يضفي على البحث من رأيه ما سهل على غيره من الباحثين تعقب الأحداث وتسلسلها . وكان منطقيا في كل رأي أرتآه ، أو نتيجة توصل إليها ، لذلك فقد خرج كتابه جامعا للأحداث والحوادث ، موضحا للأسباب ، موصلا للنتائج . وقد أفدت منه في هذا البحث أكبر فائدة ، بل إنني أخشى أن أكون قد اعتديت على ما فيه ، أو بالأحرى يجب أن اعترف بأنني اغترفت منه حتى كدت أن أشبع نهمي ، بل إنني أشعر بأنني كثيرا ما شرقت بأقواله . وكنت كلما قرأت حادثة في بعض المراجع فرحت ظنا مني أنني اكتشفت شيئا تركه لي يوسف . ولكن سرعان ما أجد ذلك في حديثه في موضع آخر وقد حفه برأيه ، ودبجه ببراعته . ولما رأيت ذلك ولمسته ، زاد

obeikandi.com

اقتباسي منه حتى أصبح ما كتبت في بعض هذا السفر سرقة علمية واضحة ، فليغفر لي يوسف ، وليغفر لي القارئ ما اقتبست ، وما استلفت ، وأخيرا ما سرقت ، فالعلم حق مشاع ، وليغفر لي القارئ ما علق بذهني من كتاب يوسف القيم وما نثرته له منه في هذه الصفحات .

وعندما تعرضت لجهينة في الجزيرة العربية وتاريخها في موطنها الأصلي ، سهل علي الأستاذ حمد الجاسر الأمر فيما كتبه عن هذه القبيلة في مجلة العرب ، فأخذت من كنوزه بقدر ما أردت زعما مني أن عند جهينة الخبر اليقين ، وأنه لا حرج فيما آخذ . لذلك لزم علي أن أثني على الأستاذ الجاسر بما نثر علي من علمه . والواقع فإن كتابات الأستاذ حمد الجاسر تسهل البحث كثيرا لمن يريد أن يتابع تاريخ القبائل في الجزيرة العربية أبقاه ا لله ذخرا للعلم والمتعلمين .

وإنه لمما يزيد من قيمة هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ أنه استقى كثيرا من المعلومات من الدكتور عبد المجيد عابدين الذي حقق كتاب المقريزي البيان والإعراب فيما بأرض مصر من الأعراب . وكما كان المقريزي حاذقا في جمع أخبار القبائل ، كان الدكتور عابدين بارعا في تصوير الحالة التي كانت عليها هذه القبائل . وأفدنا من علمه الواسع وهو يتابع أصول تلك القبائل ، ولجوءها إلى الصعيد الأعلى ، ثم فرارها وانتشارها في السودان . وكان لمعرفته بمصر وهو العربي المصري ، وإلمامه بأحوال السودان وهو أستاذ الكثيرين من أبناء السودان ، واطلاعه الفائق على المراجع ما جعلني أجد فائدة كبرى في تعليقه على ما جاء في البيان والإعراب ؛ وكان بارعا في تصوير مواقف الأحلاف القبلية في كلمات قد

تكون قليلة ، ولكنها تغني لا محالة عن كل مزيد . فكـان خير معوان لي في سرد الأحداث وتفسيرها .

ومما لا ريب فيه أن شكر الدكتور مصطفى محمد مسعد على كتابه ((المكتبة السودانية العربية)) هو أكثر من واجب ، فقد كان الأستاذ مسعد معلما في المدارس السودانية الثانوية ثم جامعة القاهرة فرع الخرطوم ، وكـان وفيا لبلده الثاني السودان ، وقد كرس جهوده لإبراز الصفحات المجهولة من تاريخ السودان . ولما فرغ من كتابه الإسلام والنوبة رأى أن يمنـح السـودان الكثير من وقته ، فكان أن اطلع على كتب المؤرخين العـرب المطبوعـة وغـير المطبوعة ، وجمع لنا ما في أربعين كتابا عن السودان في كتاب واحد . وليس الأمـر فقـط في جمـع هـذه المعلومـات ولكـن في اللبـاب الدافـئ الـذي حوتـه الهوامش ، وما فيها من دسم وحـلاوة ، ومتعـة وإثـارة . لقـد كـان الدكتـور مسعد مثالا للمعلم الدؤوب الذي يرعى تلاميذه ، ويؤثرهم على نفسه فـتراه يقضي وقته يبحث لهم عن الطعام ليصفقوا ويسقسقوا طلبا للمزيد .

وكان من بين المراجع التي اطلعت عليها ما كتبه ترمنجهام في كتابه ((الإسلام في السودان)) ، ((والإسلام في إثيوبيا)) . وممـا لاريـب فيـه أن الصبر والأناة كانا من حلفاء ترمنجهام حين كتب هذين الكتابين . وأرى أن عرضه للأحداث كان شيقا وسلسا ، لهذا فقد وجدت فيما كتـب مـا كنـت أرجوه من فائدة .

وبعد أن اطلعت على ما تقدم مـن كتـب ، لجـأت إلى كتـاب السـير هارولد ماكمايكل عن ((العرب في السودان)) . وكانت قراءتي له متأنيـة وقد تشبعت بكثير من المعلومات من المصادر السـابقة ، فوجـدت أن الرجـل يتصف بالعلم الغزير ، والتنظيم السليم لأفكاره ، وما بصرنا به من حـوادث

obeikandi.com

ونتائج . ولقد كان ماكمايكل مثيرا للإعجاب في ما قدم ، وخاصة حين فكر في الحصول على الوثائق التي كانت عند زعماء العشائر لدراستها ومقارنتها . ويماثله في الفائدة كتابه الآخر عن ((قبائل شمال ووسط كردفان)) ففي كلا الكتابين فائدة لابد من الإطلاع عليها ، وكلاهما في حاجة إلى ترجمة للغة العربية في هذا الوقت الذي قلت فيه قدرة الناس على فهم تلك اللغة ناهيك عن صعوبة الحصول على مثل هذه الكتب المتخصصة التي لم تعد دور النشر حريصة على إعادة طبعها .

ووجدت في كتاب ((أصول البقارة والدينكا)) للأستاذ / احمد عبد ا لله آدم معلومات ثمينة لهجرة قبائل البقارة عبر شمال وغرب إفريقيا ، وتجربته وراء البحث عن الأصول القبلية مثيرة جذابة ، وتدفع الباحث لمزيد من البحث . والواقع فإن في رأيي المتواضع أن كتاب أحمد ما هو الإ لبنة قوية في تاريخ بناء المجتمع السوداني والعربي ويا حبذا لو اقدم الباحثون ، كل ليكتب عن قبيلته أو عشيرته حتى تتجمع لدينا كثير من اللبنات تجعل من تاريخ السودان والعرب صرحا متكاملا .

أما كتاب أستاذنا الخالد الشيخ عبد ا لله عبد الرحمن الأمين الضرير بعنوان ((العربية في السودان)) فهو كتاب سابق لدهره . وقد كتبه طيب ا لله ثراه منذ حوالي سبعين سنة أي في عام ١٩٢٢ ، ولم تكن البلاد العربية قد نالت أي منها استقلالها سوى القلائل جدا . وكان واضحا أن الشيخ / عبد ا لله كان يأمل في أن يرتبط السودان بأشقائه من الأقطار العربية التي كانت تحت الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي والإسباني . والكتاب تحفة علمية ، ودراسة متعمقة ، ومعرفة قوية باللغة العربية ، واستيعاب لآدابها من شعر ولغة . وكان بودي أن أضيف الكتاب بأكمله لبحثي

المتواضع هذا ، وكان يحق لي أن أفعل ذلك وأنا الذي تتلمذت على يد الشيخ ولغته وشعره . ولكنني عدلت عن ذلك لأسباب أعرف أنها لن تغيب عن القارئ .

ويقيني أن في كتاب علي حسن عبد الله بعنوان ((الحكم والإدارة في السودان)) فائدة للقارئ المتعجل الذي يريد أن يعرف شيئا عن التكوين القبلي للسودان . فبالرغم من أنه لا يتصل اتصالا مباشرا بالقبائل العربية كما هو واضح من عنوانه إلا أن فيه سطورا قليلة العدد ، مليئة بالفائدة . أما ما حواه الكتاب من معلومات عن الحكم والإدارة في السودان فهي دون شك ذات فائدة عظيمة .

وكان الأستاذ التجاني عامر رحمه الله من خزائن علم القبلية والسياسة ، وقد وجد في حياته متسعا من الوقت ليدلي بدلوه في هذا المضمار ، فألف كتابه عن ((السلالات العربية السودانية في النيل الأبيض)) فكان كعهدنا به موسوعة زاخرة بالمعلومات ، شيقة في عرضها ، وقد اتحفني بكثير من أنواع المعرفة التي كنت في حاجة إليها .

لقد سرني أن كنت في صحبة هؤلاء العلماء الأماجد فترة من الوقت حتى أكملت ما أقدمت عليه من كتابة هذه الصفحات . وكان للأقدمين الأربعين الذين التقيت بهم في كتاب الدكتور مسعد عن المكتبة السودانية العربية -أقول - كان لهؤلاء في نفسي أبعد الأثر ، وفي ذهني أعمق التأثير ، وقد اقتطفت من حدائقهم أطايب الزهر ، وأعذب الثمر ، وعشت في صحبة عبقريتهم ، وعجبت كيف يقال إنهم اندثروا وقد خلفوا لنا هذه الصفحات المتلألئة . فإلى أولئك الأقدمين ، وإلى هؤلاء المحدثين أهدي هذه الصفحات إن كانت جيدة ، وهي في واقع الأمر بضاعتهم ردت

إليهم ، فليأخذ كل منهم متاعه ، وبذلك أخلي طرفي مما استدنته منهم لفترة من الوقت ، ولهم شكري وتقديري .

وبودي لو تسعفني الكلمات لاشكر بناتي وابنائي من طلابي وطالباتي الذين أغدقوا علي تقديرهم ، ومنحوني نظراتهم التي عبرت لي عن مقدار سرورهم بالقليل مما كتبت ، وإلى أحفادي من الطلاب والطالبات ، والخريجين والخريجات الذين وهبوني الاحترام الجم بأعينهم وأفئدتهم وألسنتهم و عواطفهم .وكان بسبب ذلك أن وددت لو استطعت تقديم المزيد من الكتابة حتى أكون مستحقا لذلك التقدير ، غير أن كرمهم ما بعده كرم ، وتقديرهم ما بعده تقدير ، وكل هذا يظهر حسن طويتهم ، ومكارم أخلاقهم. فإلى هؤلاء من شابات وشباب ، وبعضهم من بلغ سن النضج حسب ما يقيسها القارئ الإ أنه ما زال في نظري ذلك الصبي أو تلك الصبية التي عرفتها قبل سنوات عديدة ،... إلى كل هؤلاء أقدم شكري وتقديري على ما أولوني من إحسان ، وآمل أن يتقبلوا هذه الصفحات ، وأن يعفوا عن الهفوات ، بل أرجو أن يصححوها إما بالكتابة إلي أو الكتابة عنها وعن صحتها ، وأنا أسلمهم هذه الرسالة ، وهذه الأسطر ليكملوا ما بدأت ويصححوا ما ارتكبت من أخطاء .

إن شباب السودان من كلا الجنسين ، وشيوخه ، ومن بلغوا سن الكهولة ، وأساتذتي الذين أجلهم ، قد وهبوني منذ فجر حياتي من المحبة والتقدير ما فاق كل شئ من أوسمة أو جوائز دولة . وإن أجمل شئ رأيته في حياتي ربما كان تلك الأيدي التي تمتد لمصافحتي في كهولتي ثم شيخوختي وكأنما تمد لي الصحة والعافية ، وأعادت ابتساماتهم المخلصة الحياة إلى جميع خلجات جسمي ، وإن من يجد كل هذا التقدير الذي وجدته يندفع ليعمل

المزيد ، ويهب الكثير ما أمكنه ذلك وكم كان جميلا أن يقف ببابي ، ويقعد في مجلسي من شباب الوطن عدد منهم للحديث عن كل شئ مما جعل قلبي يعيش في نعمة وسعادة على مدى هذه السنوات التي نعيش فيها . لقد نعمت بمجالستهم ومخاطبتهم ، وانتشيت وثملت من ذلك ولذا وجب علي الشكر لما أولوني من إمتاع .

إنني مدين لكل من صافحني وقد ابتهجنالحرارة اللقاء ، ومقدر لكل من أسهم في إثراء حياتي علما ، وفهما . ورأيا وحيوية ، وكلمة . فإلى كل أولئك أقول ألا ما أحلى الحياة وسط هؤلاء الفتية . ولعل من المناسب أن أذكر هنا أولئك الأفذاذ الذين التقيت بهم في مختلف أنحاء الأرض ، والذين جمعتني وإياهم أحاديث الأدب ، وروائع الشعر ، ودور العلم ، وينابيع الترجمة . فقد كان هؤلاء خير معين لي على الحياة الهادئة في ربوع الكتب . وكان تقريظهم لما قدمت ، وحسن تقبلهم لما أسهمت به ، قد يسر لي سبل العيش في وسط الأوراق والكتب .

وكان الدكتور يحيى ساعاتي مدير مكتبة الملك فهد بالرياض خير من يسر لي وسائل البحث ، ولم يدخر وسعا في تزويدي بالمصادر العلمية التي كنت بحاجة إليها . ومن الغريب أنه فعل ذلك دون أن أذكر له حاجتي ، أو أطلب منه إعانتي . وكنت أعجب كيف قرأ أفكاري وأنا لم أفصح له بشيء منها . ولكن ما لبثت أن عرفت حاسة سادسة فيه مصدرها حب العلم والبحث . لقد كان من نعم الله التي لا تحصى فجزاه الله عني كل خير فيما يسر لي من سبل العيش .

هذه كلمات أشعر بأنه واجب علي أن أكتبها و أن أكتب أكثر منها ، لكنني على يقين من أن القارئ سيملأ كل ما تركت من فراغ لحذقه وبراعته . وعسى أن نلتقي في أوراق أخرى .

ضرار صالح ضرار

٢٠ رمضان ١٤١٢ هـ

٢٤ مارس ١٩٩٢ م

obeikandl.com